تفسير سورة التحريم

للاستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« واسرار التنزيل ورموزه فى كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفطن العالم ، ويند عن تبصره » الكشاف

بسم الله الرحمن الرحيم : يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم ، قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم • واذ أسر النبى الى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه واعرض عن بعض ، فلما نباها به قالت من أنبأك هذا •• قال نبأنى العليم الخبير • »

للانسان كما للدولة سياستان : سياسة عامة وسياسة خاصة أو داخلية وأنت تعلم ان الدولة اذا لم تستقر سياستها الداخلية كانت سياستها الخارجية على شفا جرف هار •• والفرد اذا لم يكن هادئا مطمئنا فى بيته اضطربت صلاته بالاخرين وفسد رأيه وساء تدبيره واستولى الخلل على عمله •• لابد اذن ، سواء نظرنا الى الدولة أو الى الفرد ، من أن تستقر الحياة الداخلية وتهدأ والا انهارت الدولة وطغى عليها غيرها واضطرب الفرد وضاق بالحياة أو ضاقت به الحياة •• والقرآن لايخرج عن كونه دستورا عاما يهدى للتى هى أقوم •• هو دستور للدولة فى سياستها العامة وفى سياستها الخاصة •• وهو دستور للفرد فى سياسته العامة وفى سياسته الخاصة ونحن الآن بصدد سورة كريمة تتعلق بناحية من نواحى التنظيم فى حياة الفرد الداخلية أو اضطرابها بالزوجة وللزوجة شأن كبير لا ينكر فى استقرار الحياة أو اضطرابها حقيقا انها نزلت لمناسبة خاصة ولمسألة تتعلق بالرسول بيد أن تخصيصها بالرسول الكريم وبأزواجه الطاهرات انما هو من وضع المفسرين ــ لقد طغى عليهم سبب النزول فصرفهم عن القاعدة المشهورة « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » واذا كانت السورة الكريمة تتحدث عن أمهات المؤمنين فى علاقتهم بالرسول فليس معنى ذلك انها لا تتعداهن ، وليس معنى ذلك ان الحادثة التى نزلت بسببها السورة حادثة فردية لا تتكرر على مر الزمن ، على أن قصرها على الرسول ليس فيه معنى من معانى التعظيم له فهو عظيم بتأديب الله وبما منحه سبحانه من استعداد كامل لتلقى الرسالة • ولو لم تحدث تلك الحادثة

لنزلت السورة الكريمة بمعناها الدقيق فى تعبير اخر ، فتلك ناحية ما كان القرآن ليهملها ٠٠ ثم انك تعلم أن ما ذكره القرآن فانما لحكمة ذكره وأن ما سكت عنه القرآن فانما لحكمة سكت عنه ـ وقد سكت القرآن عن ذكر سبب نزول السورة مع أنه فى مواطن كثيرة لم يتحاش ذكر التفصيلات كما هو الشأن فى القصص الذى يتعلق بيوسف وبزكريا ومريم عليهم السلام ٠٠ وسكوت القرآن فيما نحن بصدده لم يكن اعتباطا بل ليصرفنا عن خصوص السبب ، وليوجه انتباهنا الى أن السورة داخلة فى نطاق ـ تدبير السياسة الداخلية للفرد ٠ ولو اتبعنا هدى القرآن لكان لهذه السورة شأن أى شأن فى محيط الوعظ ـ ثم ان عدم ذكر السبب له فائدة أخرى وذلك انه يصرفنا ، بطريق غير مباشر ، عن التطفل الذى انتشر فى عصرنا الحاضر حتى أصبح المجلس لا يحلو الا اذا قام على القيل والقال ٠ وهتكت فيه أسرار الناس وانتهكت حرمات الفرد ٠ وان أصحاب رسول الله ، رضوان الله عليهم فهموا مقصد القرآن حتى ان ابن عباس ، رغم صلته الوثيقة بالاسرة المحمدية لم يكن يعرف المخاطبين فى قوله تعالى : « **ان تتوبا** » أما مفسرونا ، غفر الله لهم ، فقد استفاضوا فى ذكر السبب وتجادلوا فيه وانصرفوا وصرفونا عن التى هى أقوم ٠٠

واذا كان المفسرون قد استفاضوا فى ذكر السبب ، تلك الناحية التى لم يعرها القرآن أية أهمية ، فانهم غفلوا عن شىء له أهميته ، وله مكانته بالنسبة للوعظ وبالنسبة للهدى بل وبالنسبة للقيمة الذاتية للقرآن نفسه : ذلك هو وحدة السورة الكريمة ٠ وانه لمن الغرابة بمكان أن ينصرف عامة المفسرين عن ذلك الجانب فيفسروا السور مفككة منحلة كأن كتاب الله من هذه الكتب التى تبدأ الفصل بالحديث عن الخير ، ولتختمه بالحديث عن الخيل أو كأنه « **المستطرف فى كل فن مستظرف** » ان عمل المفسرين ان أشعر بشىء فانما أشعر بأن الايات أخذت اعتباطا فوضعت الواحدة تلو الاخرى وأن الرابطة بين الايات انما هى رابطة اتفاقية ـ وأن تقسيم القرآن الى سور انما هو تقسيم تحكمى لا معنى له أو هو أمر تعبدى لا نعلم له مغزى ٠

اللهم انى أبرأ اليك من أن أغمط المفسرين حقهم ، أو أن أنقص من عملهم الجليل فقد خدموا كتاب الله ما وسعهم ذلك ٠ واذا كانوا لم يدعوا العصمة ، واذا كان أحدا لم يفترض فيهم العصمة ، فاننا نرى أن الاتجاه الذى انصرف اليه المفسرون ، فى مجموعهم ، كان اتجاها ميكانيكيا أكثر منه اتجاه تفكير وتأمل ، ولذلك طغى عليهم التطبيق : التطبيق على النحو والتطبيق على البلاغة ، بل والتطبيق على المذهب الكلامى أو الفقهى ، ومن هنا كان القرآن نصا يخضع لا هديا قائدا يرشد الى الجادة المثلى ومن هنا كانت الاستفاضة فى ذكر سبب نزول السورة

الكريمة التى نحن بصددها ومن هنا كان الانصراف عن وحدة السور وكان التفسير المفكك .

ومسألة الوحدة ان أجهدت التفكير نوعا ما ، وهذا طبيعى ، فى بعض السور ، فانها تفاجىء الانسان مفاجأة واضحة فى هذه السورة التى نحن بصددها لذلك كان من الغريب حقا أن لا تلاحظ

ومهما يكن من شىء فالسورة الكريمة تبدأ بتعنيف قاس مر لرسول الله تعنيف يشعر بقسوته كل شخص ولكنه يبلغ ذروة القسوة فى البيئة العربية التى تعد المرأة من سقط المتاع والتى كانت وقت نزول السورة الكريمة زاخرة بالعناصر المعادية لرسول الله والتى كان يسرها أن تجد ضده ما تتندر به وتتهكم وتتحكم وتسخر . حاول ان تقف قليلا لتتصور الموقف . حاول ان تتصور رسول الله ، فى هذه البيئة يقال له : انك من أجل نسائك حرمت ما أحل الله انك حرمته لا لضرورة ماسة تتصل بأزواجك بل من أجل مرضاتهن ، من أجل دلالهن ، من أجل متعة نفسية ترضى كبرياءهن ، وحاول أن تتصور هذا الموقف بكل ما يحيط به من حالة اجتماعية ومن أعداء ومن أصدقاء ومن منافقين ومن المؤلفة قلوبهم ، ثم ارجع الى وجدانك واسأل نفسك : أكان يفعل محمد ذلك لو أنه اخترع القرآن اختراعا ؟

ثم تصور نفسية الرسول لو خوطب مباشرة : لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك ؟

ولكن الله لطيف برسوله فهو سبحانه يبدأ الآية : « **يأيها النبى** »

الله سبحانه يبدأ بصيغة الاعتماد ، انه يبدأ بتقرير الثقة . انه لا يزال يوليه عنايته ويخصه بالرسالة ـ اذن اطمأن الرسول وأصبحت حالته النفسية على استعداد لتحمل الصدمة : لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك ، ولكنها مع ذلك صدمة قوية والله أرأف بالرسول من أن يزلزله زلزالا ومن أن يطير نفسه شعاعا فيختم الآية بتلطيف واسماح : والله غفور رحيم . تلطيف فى مفتتح الآية وتلطيف فى ختامها ولكنه تلطيف أعمق أثرا وأدوم بقاء من العنف المجرد . تلطيف لو اتبعه الرؤساء فى معاملة المرؤوسين لأجدى ولبقى أثره . وهداية القرآن أسمى هداية : أرأيتك لو صحت فى وجه المرؤوس وزمجرت وتميزت غضبا تفعل شيئا آخر غير احراج صدرك ؟ عنف ملطف أو لطف مصحوب بقسوة ـ تلك هى السياسة المثلى التى ترشدنا اليها هذه الآية الكريمة .

ولكننا لم نفرغ بعد من الآية ، بل اننا لم نتعرض لأدق ما فيها من معنى واسمى ما فيها من تلطيف اننا لم نتحدث بعد عن لفظة : لك الموجودة فى الآية الكريمة .

عد الى قراءة الآية من جديد مجردة عن لفظة لك ـ أترى فرقا هائلا أترى أن فيها مع لفظة : لك تلطيفا بديعا ساميا يكاد يشعرك بعتاب المحب لانه يشعر الرسول بأن ماأحله انما أحله الله له فيصير معنى الاستفهام لم رفضت ما منحته لك ؟ لم رفضت ما حبوتك به من عطف ، أو بتعبير أدق لم رفضت هديتي اليك ؟ ثم يكلل الله هذه التلطيفات كلها بتلطيف رابع : هو نعمة سابغة عامة يكللها بتلطيف بالنسبة للرسول هو في الوقت نفسه تفضل ينعم الله به من أجل الرسول على الامة الاسلامية كافة ـ وهذا هو ما ترشد اليه الآية الثانية : « **قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم** » • انك تعلم أن هذه الآية مترتبة على الآية الأولى • وأن الله سبحانه في الآية الأولى يعاتب الرسول ـ يمكننا الآن أن تستعمل لفظ العتاب ـ على رفضه الهديه • فكأن الآية الثانية تقول : ان في مقابل رفض الهدية ينعم الله على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى أمته بتحلة الايمان بالكفارة ••

وكان الترتيب اذن يشعر بأنه لو لم يرفض الرسول الهدية لما منحت الأمة المحمدية هذه النعم قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ، والله مولاكم وهو العليم الحكيم » أتشعر بمعنى التكريم بمكانة الرسول السامية ؟ أرأيت حفلة تكريم تقام لشخص لأنه فعل ما يعاتب عليه ؟ وتنثر فيها الهدايا والمنح عليه وعلى اتباعه لأنه فعل ما يعاتب عليه ؟ أتشعر بهذه الصلة السامية صلة العطف والرحمة والتفضل والتلطف في هذا الموقف الخاص : موقف المؤاخذة ؟

ألا تشعر اذن بأن بعض المستشرقين والقساوسة كانوا متعصبين جهلاء سيئي النية حينما يقولون أن الطابع العام في الدين الاسلامي فيما يتعلق بصلة الانسان بربه انما هو طابع الاستعباد وأن الصلة انما هي صلة العبد الرقيق بالسيد الشرس وأنه لهذا لا يتمكن المسلم من أن يصل الى هذه الروحانية الصافية الخالصة التي تنشئها صلة فيها الرفق وفيها العطف وفيها الرعاية كما هو الشأن في المسيحية ؟

أرأيت رفقا وعطفا ورعاية وتلطفا يسمو على ما يتمثل في هاتين الآيتين الكريمتين في هذا الموقف الخاص ! سبحانك ربي ان ما يزعمونه بهتان عظيم • •وان روحانية الاسلام ممثلة في رسوله الكريم وفي صحابته الأطهار وفي صوفية الاسلام ، تلك الصوفية التي بلغت من الروحانية شأوا لا يضارع ، أقول ان روحانية الاسلام التي ولدتها رعاية الله وهديه الاسمى لا ينكرها الا جاهل أو متعصب ••

أما بعد فيقول الله تعالى « **يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم • قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم** • »

وأما بعد فيقول الجاحظ : « **اذا سمعت انسانا يقول ما ترك الاول للآخر شيئا ، فاعلم أنه يريد أن لا يفلح** »

عبد الحليم محمود